بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة عن الكتاب

ورثت الدولة الإسلامية من امبراطورية الرومان القديمة معظم أقاليم البحر الأبيض المتوسط، كمصر وشمالى أفريقية والأندلس وصقلية والشام والعراق الأعلى.

واستخدمت وسائل الحكم ونظم الإدارة الرومانية بهذه الأقاليم المفتوحة، لتدعيم سلطانها الجديد هناك، ومن تلك الوسائل الطرق الرومانية المعبدة، ونظام البريد الذى ينم اسمه عن أصله اللاتينى فيريدى (Veredii) ومعناه خيل البريد، والدينار وهو معرب اللفظ ديناريوس (Denarius) .

على أن دولة المسلمين قد فاقت امبراطورية الرومان فى فتوحها وأملاكها، وقد استلزم ذلك فضلاً عما كان هنالك من قبل كثيرًا من طرق البريد ومصانعه وموظفيه، مما توجد تفاصيله فى الكتب العربية التى ألفت لارشاد العاملين فى تلك الناحية من الإدارة الإسلامية، وهذه الكتب هى أول ما كتب المسلمون فى وصف البلاد التى خضعت لحكمهم.

على أن اهتمام المسلمين بجغرافية فتوحهم وما يجاورها من البلاد، وتأليفهم وترجمتهم للكتب فى الجغرافية الوصفية، لم ينشأ عن ضرورات الإدارة والبريد وضبط الضرائب فحسب، بل كان لتأدية فريضة الحج، والتجارة فى البر والبحر، والاشتغال بالجغرافيا كعلم لأجل ذاته، وحب الراحلة لتدوين المشاهدات، أثر ملموس فى عدد المؤلفات التى وصلت إلينا من تراث المسلمين.

ومن هذه كتاب رحلة ابن جبير المعروف باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، الذى كتبه مؤلفه حوالى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)، وتداولته أيدى القراء مخطوطًا فى الشرق والغرب، حتى قام على نشره وطبعه ويليام رايت (William Wright) الانجليزى سنة ١٨٥٢ م، وراجعه بعده دى خويه (De Goeje) الهولندى سنة ١٩٠٧م، فى الجزء الخامس من سلسلة جب التذكارية تحت اسم: (Travels of Ibn Jubayr. E. W. Gibb, Mem. Series. V. 1907).

كان ابن جبير عربيًا أندلسيًا، واسمه أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى، وقد ولد فى بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)، وتعلم على أبيه وغيره من علماء عصره. ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين فى وظيفة كاتم سره، فاستوطن من وقتئذ غرناطة.

ويقال إن الأمير أبا سعيد استدعاه يومًا ليكتب عنه كتابًا وهو على شرابه، فمد يده إليه بقدح من نبيذ، فاعتذر ابن جبير وأبى واسترجع، فأقسم عليه الأمير يمينًا مغلظة ليشربن منها سبعًا، فشربها صاغرًا، ثم ردها عليه أبو سعيد سبع أقداح من الدنانير.

لذلك أزمع ابن جبير الحج بتلك الدنانير تكفيرًا عن خطيئته، وأقام فى سفره سنتين، ودون مشاهداته وملاحظاته فى يوميات هى المعروفة برحلة ابن جبير، فجاءت مدونة وافية لجميع ما شاهده، وصفحة واضحة لبعض تاريخ البلاد الإسلامية والمسيحية التى مر بها، وقاموسًا لمصطلح عصره فى بناء السفن والملاحة البحرية، وثبتًا بأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم فى أواخر القرن السادس الهجرى، وهذا فضلاً عن أنها كانت – على ما يظهر لى – كتاب دعاية لدولة الموحدين، تمنى ابن جبير فيه أكثر من مرة أن يمتد نفوذ تلك الدولة شرقًا إلى مصر والحجاز.

ترك ابن جبير غرناطة مع صديق اسمه أحمد بن حسان، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٣ م)، إلى جزيرة الطريف (الطرف الأغر)، وعبر البحر من هناك إلى سبتة (Cutae)، فألفى بها سفينة الجنَوية (Genoese) مقلعة إلى الاسكندرية، فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير).

وسارت السفينة عبر الزقاق (Denia)، (Gibralter) مساحلة شاطئ الأندلس حتى ثغر دانية، ثم اتجهت غربًا فمرت بجزائر ميورقة ومنورقة وسردانية، وطرأ عليها قبالة بر سردانية نوء وأمواج كادت تقذف بها إلى حيث أتت، ثم استطاع رائسها أن يصل بها إلى الشاطئ السردانى، فجدد المسافرون هناك الماء وامتاروا.

ثم أقلعت المركب تريد جزيرة صقلية، فوصلت إليها على متن ريح عاتية، وأرست على شاطئها عند موضع لم يذكره ابن جبير. ثم فارقت بر صقلية، واتجهت غُربًا حتى حاذت بر جزيرة اقريطش (Crete) تقديرًا لا عيانًا، واستقر بها النوى أخيرًا عند الاسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة (٢٦ مارس)، أى أنها استغرقت فى سفرها من جزيرة الطريف إلى الاسكندرية ثلاثين يومًا.

كان أول ما شاهده ابن جبير بثغر الإسكندرية أن طلع أمناء السلطان – وهو وقتئذ صلاح الدين الأيوبى – إلى المركب، وطلبوا جميع من كان فيها من المسلمين واحدًا واحدًا، لتقييد أسمائهم وصفاتهم وبضائعهم قبل النزول إلى البر.

وقد آلم ابن جبير أن يطلب إلى المسافرين – وهم حجاج مسلمون، لم يستصحبوا معهم سوى زاد طريقهم – أن يؤدوا الزكاة عن جميع ما معهم، من غير تفرقة بين ما كان ولم يكن قد حال عليه الحول.

ثم طاف ابن جبير بالمدينة، فزار المنار، وصلى بالمسجد المشيد فى أعلاه، وشاهد بقايا العمائر البطليموسية والرومانية، وذكر المدرسة والمارستان المخصصين للغرباء، كما لاحظ كثرة المساجد بالإسكندرية بحيث كانت منها الأربعة والخمسة فى موضع واحد، وربما كانت مبنية بعضها فوق بعض.

وقد شاهد ابن جبير وهو بالإسكندرية دخول جماعة كثيرة من أسرى الحملة الصليبية الجزيئة التى كان أرناط (Renaut de Chatillon) صاحب الكرك، وقد أنفذها ذلك العام فى البحر الأحمر لغزو بلاد العرب والاستيلاء على مكة والمدينة، ليصيب المسلمين فى مقتلهم، وصلاح الدين بعيد فى شمالى الشام، وقد فشلت هذه الحملة بعد أن قاربت سفنها ساحل الحجاز، وكان أولئك الذين شاهدهم ابن جبير من الأسرى جزءًا مما وقع فى أيدى المسلمين من جنودها.

انما يُلاحظ أن ابن جبير أهمل أو أنسى أن يذكر أيضًا ما حدث لبقية المسافرين من الفرنجة والروم والجنويين على يد عمال صلاح الدين بالإسكندرية، وهذا نقص يؤسف له، لو تداركه ابن جبير بجملة من قلمه لساعد المشتغلين بتاريخ الحروب الصليبية على وزن الحقائق المعروفة بصدد معاملة المسيحيين فى الموانىء الإسلامية من جديد، ولأوجب عليهم القصد فى العبارة المتواترة فى كتب التاريخ القديمة بأن سوء معاملة الحجاج المسيحيين فى الموانئ الإسلامية كان من أكبر الأسباب التى أثارت أوربا للحروب الصليبية.

ثم رحل ابن جبير عن الإسكندرية يوم الأحد ٨ ذى الحجة (٣ أبريل) إلى القاهرة، حيث نزل بفندق أبى الثناء بزقاق القناديل قرب جامع عمرو بن العاص.

وأقام ابن جبير بالقاهرة أيامًا زار فى أثنائها مسجد الحسين، حيث رأى فى جدار الحائط الذى يستقبله الداخل حجرًا شديد السواد، والبصيص فيه يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الحديثة الصقل.

ثم زار القرافة، ومسجد الشافعى، والمدرسة الناصرية التى بناها بجواره السلطان صلاح الدين، وقد وصف ابن جبير تلك المدرسة بأنه لم يعمر بهذه البلاد مثلها سعة، «يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها».

ولقد لقى ابن جبير شيخ هذه المدرسة وهو نجم الدين الحبوشانى، ولم يلق من رجال مصر سواه، وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين، أو أخيه العادل، أو بهاء الدين قراقوش، أو القاضى الفاضل، ووصف لنا بعض أولئك الرجال الذين أسسوا الدولة الأيوبية فى مصر، على أنه لم يفوت مناسبة بغير أن يشيد بذكر صلاح الدين وأعماله وحسن سيرته فى بلاد الشرق الأدنى، وقد صوره فى عبارة أنيقة دقيقة فقال:

«أنه لا يأوى لراحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سرجه مجلسه، وسمعنا أحد فقهاء... المسلمين بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه... ثلاث مناقب فى ثلاث كلمات حكاها عنه: احداها أن الحلم من سجاياه، فقال، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه، أما أنا فلأن أخطىء فى العفو أحب إلى من أن أصيب فى العقوبة، وقال أيضًا، وقد تنوشدت بحضرته الأشعار، وجرى ذكر من سلف من أكارم العرب وأجوادهم: والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما فى خزانتى لما كان عوضًا مما أراقه من حر ماء وجهه فى استمناحه اياى..، وحضره أحد مماليكه المتميزين (كذا) لديه بالحظوة والأثرة مستعديًا على جمال ذكر أنه باعه جملاً معيبًا.. فقال السلطان له: ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعىّ مبسوط للخاصة والعامة..، وإنما انا عبد الشرع..، فالحق يقضى لك أو عليك..».

هذه صورة لصلاح الدين الذى تم على يده تأسيس الدولة الأيوبية فى مصر والشام، وكان له الفضل فى إعادة السنية إليهما. وكان صلاح الدين قد أبدل الدعاء للفاطميين من منابر القاهرة بالدعوة لبنى العباس منذ المحرم سنة ٥٦٧ هـ (سبتمبر سنة ١١٧١ م)، وقد لحظ ابن جبير ذلك فى كثير من الاغتباط.

وترك فى يومياته صورة دقيقة لخطيب الجمعة كما رآه بالقاهرة، اذ «يأتى للخطبة لابسا السواد على رسم العباسية، وصفة لباسه بردة سوداء عليه طيلسان شرب أسود، وهو الذى يسمى بالمغرب الاحرام، وعمامة سوداء، متقلدًا سيفًا، وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين، كأنها إيذان

بالانصات، وفى توسطه أخرى، وفى انتهاء صعوده ثالثة، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا، ويقف بين رايتين سوداوين فيها تجزيع بياض، قد ركزنا فى أعلى المنبر».

وقد لاحظ ابن جبير مثل ذلك بمكة، وزاد عليه أن الخطيب دخل الحرم «يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين، وبين يديه ساعيًا أحد القومة، وفى يده عود مخروط أحمر قد ربط فى رأسه مرس من الأديم المفتول رقيق طويل، فى طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده فى الهواء نفضًا فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه، كأنه ايذان بوصول الخطيب، لا يزال فى نفضها إلى أن يقرب من المنبر، ويسمونها الفرقعة».

ومما شاهده ابن جبير بالقاهرة القلعة، ولما يكتمل بناؤها، كما عاين سور القاهرة والخندق المحدق به، والقناطر التى ابتناها صلاح الدين من قرب الجيزة الحالية على امتداد طريق الإسكندرية الصحراوى، وكان القائم على ذلك كله بهاء الدين قراقوش.

وقد بين ابن جبير أن صلاح الدين أراد أن يتخذ من القلعة سكنًا وحصنًا، وان يمد فى السور حتى ينتظم مصر والقاهرة، وأن يجعل من القناطر سدًا يدفع به عادية الطامعين فى مصر من أهل المغرب وبقايا الفاطميين، ولاحظ أيضًا أن جميع المسخرين لتلك المنشئات كان من أسرى الفرنج.

وهذا كله صحيح متواتر فى المراجع المعاصرة، وهو دليل على دقة ابن جبير وصحة استقصائه. غير أنه قرر وجود مارستانين لصلاح الدين بالقاهرة ومصر، وشرح رسم أولهما، وقال أن الثانى على مثل ذلك الرسم بعينه. على أنه ليس من المعروف أن صلاح الدين ابتنى مارستانا ما على نسق ما ابتناه مخدومه نور الدين بن زنكى بدمشق، ما عدا أنه أمر بأن تعمل خزانة الأشربة التى كانت للقصر الكبير الفاطمى مارستانا للمرضى.

ولعل ابن جبير رأى فعلا مارستان أحمد بن طولون بين القاهرة ومصر، فظنه أيضًا من مستحدثات صلاح الدين، وكان جامع ابن طولون قد تحول فى ذلك العهد إلى مأوى للغرباء من أهل المغرب يسكنون ويحلقون فيه، أى يعقدون حلقات الدرس به.

وقد زار ابن جبير أهرام الجيزة الثلاثة، ووصفها وصفًا يدل على أنها كانت فى أيام صلاح الدين مثلمًا هى عليه الآن تقريبًا، وسمى هرمى خوفو وخفرع باسم «الكبيرين»

وهرم منقرع باسم «الصغير»، وذكر أنه كان دون هـذا «الصغير» خمسة صغار متصلة، فكأنه رأى الهرم الرابع، كما رأى تمثال أبى الهول، وسماه باسم «أبى الأهوال».

وقد زار ابن جبير عدًا ذلك بلدة الجيزة، وجزيـرة الروضـة، ومقياس النيـل، وجـامع عمرو بالفسطاط، حيث شاهد بعض آثار الحريق الذى أحدثه بـها الصليبيون فـى أواخـر أيام الدولة الفاطمية.

ثم سافر ابن جبير من القاهرة فى النيل إلى قوص، فاجتاز علـى مـدن الصعيـد دون أن ينزل باحداها، ما عدًا المدن التى توقفت المركب عندها بـأمر السلطات المحليـة، كمنيـة ابن خصيب وأسيوط وأخميم، حيث أحصى المسافرون واستدفعوا الزكاة عن ما لديهم مـن المال كما حدث بالإسكندرية. وقد وصف ابـن جبـير هـذه المطـالب المتكـررة بأنـها سـرقة مقنعة، و «ادخال للأيدى إلى أواسط التجار».

ووصل ابـن جبـير إلى قـوص يـوم الخميـس ٢٤ محـرم سـنة ٥٧٩ هـ (١٩ مـايو سـنة ١١٨٣ م)، فوجدها حفيلة الأسـواق لكثرة الصادر والوارد مـن الحجـاج والتجـار مـن مصـر والمغرب واليمن والهند والحبشة.

ثم فصل منها إلى عيذاب عن طريق الصحراء المشهور، وهو طريق التجـارة الدوليـة فـى الفلفـل وأنـواع البـهار التـى انبـت علـى مكاسـبها عظمـة الدولتـين الأيوبيـة والمملوكيـة، كما انبنت عظمة الامبراطورية البريطانية على تجارة الشاى وتوابل الهند فى القرن الثامن عشر.

ولا مبالغة فى وصف ابن جبير لضخامة تلـك التجـارة، حـين قـال أنـه رام فـى هـذه الطريق «احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن، ولا سيما القوافل العيذابيـة المتحملـة لسلع الهند، الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمـن إلى عيـذاب.. مـن.. أحمـال الفلفـل، فلقـد خيل الينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة».

وقد امتدح ابن جبير أحوال الأمن العام فى هذا الطريـق، حـين قـال: «ومـن عجيـب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفـل والقرفـة وسـائرها مـن السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذا السبيل أما لاعياء الابـل الحاملـة لهـا أو غـير ذلك من الأعذار، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفـات، علـى كـثرة المار عليها من أطوار الناس».

ووصل ابن جبير عيذاب ليعبر البحر الأحمر منها إلى جدة، فاكترى مكانًا فى إحدى السفن المخصصة لنقل الحجاج بين الثغرين، واسمها الجلاب والواحدة جلبة.

وقد وصف ابن جبير هذه السفن وصفًا فريدًا فى مؤلفات المسلمين، فقال بأنها «ملفقة البناء، لا يستعمل فيها مسمار البتة، إنما هى مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل، يدرسونه إلى أن يتخبط، ويفتلون منه أمراسًا يخيطون بها المراكب، ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة، سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها، وهذا القرش حوت عظيم، ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب، لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى. ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل، فمجموعها متناسب فى اختلال البنية ووهنها».

على أن أصحاب تلك السفن لم يبالوا بالحجاج أو راحتهم، بل كان كل همهم أن يشحنوا بهم الجلاب، حتى يجلس بعضهم على بعض كأنهم فى أقفاص الدجاج، فيستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى سفرة واحدة، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك، وكأن أصحاب تلك السفن يقولون علينا بالألواح (ألواح السفينة) وعلى الحجاج بالأرواح. والواقع أن هذه السفن لم تخلق فى نفوس الحجاج شيئًا من الطمأنينة، وكفى قول ابن جبير فى هذا الصدد أنه وأصحابه فى هذه الرحلة ماتوا مرارًا وحيوا مرارًا.

ثم فصل ابن جبير من جدة يوم ١١ ربيع الآخر ٥٧٩ هـ (٢ أغسطس سنة ١١٨٣ م) قاصدًا مكة، فوصلها بعد ثلاثة أيام، ودخلها من باب العمرة، وطاف بالكعبة طواف القدوم. ثم طفق يتعرف على أماكن الزيارة، وقد ترك وصفًا دقيقًا ضافيًا للمسجد الحرام ومكة نفسها فى سبعين صفحة من كتابه، فجاء وثيقة أثرية لتلك البقاع وأحوالها فى أواخر القرن السادس الهجرى.

ويتخلل هذا الوصف ملاحظات لابن جبير ذات أهمية فى دراسة التاريخ الإسلامى: منها أن أهل الحجاز عامة كانوا يعتبرون الحجاج – وليس موسم الحج – من أعظم غلاتهم التى يستغلونها، ينتهبونهم انتهابًا بأنواع المكوس، وأن مكثرا الحسنى أمير مكة فى ذلك الوقت، لم يشذ عن بقية أهل الحجاز فى جشعهم وترويعهم للحجاج، وأن ما أحدثه السلطان صلاح الدين من ابطال هذه المكوس، وتعويضه أمير مكة بمال وطعام يرسله إليه كل سنة، عدًا اقطاعات عينها له بصعيد مصر، قد خفف كثيرًا من متاعب الحجاج.

ومن ملاحظات ابن جبير أيضًا أن أشراف مكة كانوا على مذهب الزيدية، يزيدون فى الأذان «حى على خير العمل»، ولا يجتمعون مع الناس فى الصلاة، انما يؤمهم إمام خاص. ومن ملاحظاته أيضًا عادة التهنئة بالهلال الجديد عند أهل مكة، يتصافحون ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم فى الأعياد، وكان الأمير مكثر يبكر إلى الحرم فى أول كل شهر بحاشيته وقواده وحرابته لاستقبال التهنئة بالشهر الجديد، باعتباره السلطان الحاضر فى مكة، على أن السيادة العليا كانت للخلافة العباسية، فيدعو خطيب الجمعة للخليفة، ثم لأمير مكة، ثم للسلطان صلاح الدين ولولى عهده وأخيه العادل أبى بكر.

وقد لاحظ ابن جبير فى صلوات الجمعة بمكة أنه عندما يأتى الخطيب على ذكر صلاح الدين تخفق الألسنة بالتأمين من كل مكان ، اعترافًا بفضله على العالم الإسلامى عامة ، ولا عجب أن يغرد أهل السنة هذا السلطان بتأميناتهم الهالعة ، فقد هدم الدولة الفاطمية ودعوتها من مصر بغيرٍ حرب ، بعد أن عجزت الخلافة العباسية عن ذلك بمختلف الوسائل ، وهذا فضلاً عما بلغه من التوفيق فى الحروب ضد الصليبيين حتى آخر عهده .

وقد رأى ابن جبير وهو بمكة مقدم الملك سيف الإسلام طغتكين أخى صلاح الدين من مصر ، وكان فى طريقه إلى اليمن التى دانت للأيوبيين ، وقد وصف ابن جبير موكب هذا الملك وصفًا دقيقًا ، حيث مشى الأمير مكثر إلى جانب طغتكين مشية التابع الخاضع ، والناس فى موسم الحج من جميع الأقطار على جانبى الطريق ، وفى ذلك دلالة على أن هيبة الدولة الأيوبية كانت تفوق كل هيبة فى عصرها .

إلى هنا كان ابن جبير قد أقام بمكة ستة شهور قمرية تقريبًا ، وهذه الحقيقة وحدها مما يؤكد لنا أن ما جاء بكتابه فى وصف معالم مكة قد كتب عن روية وتحقيق .

ثم أهل شوال ، وهو فاتحة أشهر الحج ، فحج ابن جبير وترك فى مدونته وصفًا دقيقًا لجميع المناسك والمراسم فى عصره ، وذكر فى خلال ذلك الوصف أعيان الحجاج ذاك العام من الرجال والنساء .

ثم رحل إلى المدينة ، وأكمل حجته بزيارة المسجد النبوى ، كما أكمل كتابه بوصف ذلك المسجد الشريف ، ولم يبق لديه من أغراض السفر سوى الرجوع إلى وطنه .

غير أنه لم يرجع من حيث أتى ، بل وافق الركب الشامل لحاج العراق وخراسان وكردستان والشام ، فسار إلى العراق فى ٨ المحرم سنة ٥٨٠هـ (٢١ أبريل سنة

١١٨٤م) ، واتبع طريقًا طويلاً إلى الأندلس ، فأضاف إلى مؤلفه قيمة جديدة بما دونه فيه من ملاحظات هامة عن كثير من مدن الشرق الأدنى وثغور البحر الأبيض المتوسط فى عصره ، كما سيلى .

مر ابن جبير فى طريقه إلى العراق بالقادسية وكانت إبان الفتوح الإسلامية الأولى ثغرًا من ثغور دولة الفرس ، وعندها انتصر سعد بن أبى وقاص بجيشه القليل على الجيوش الفارسية بقيادة رستم . وقد وجدها ابن جبير قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ، ومشارع من ماء الفرات .

ثم نزل على الكوفة ، وهى المدينة التى أمر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب بعد وقعة القادسية لتكون معسكرًا دائمًا للمسلمين فى فتوحهم الجديدة ، وقد صارت عاصمة للدولة الإسلامية فى خلافة على ، وفى أوائل أيام الخلافة العباسية أيضًا ، وألفاها ابن جبير مدينة كبيرة عتيقة البناء ، قد استولى الخراب على أكثرها ، الغامر منها أكثر من العامر .

ثم رحل إلى الحلة ، وعبر الفرات عندها على جسر معقود على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط ، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد قد ربطت إلى خشب مثبتة فى كلا الشطين ، وقد اجتاز ابن جبير بقرب الحلة جسرًا ثانيًا على نهير يسمى النيل ، وهو أحد فروع الفرات .

ثم وصل ابن جبير إلى المدائن ، عاصمة الدولة الفارسية قبل الإسلام ، فوجدها خرابًا . ودخل بغداد ، فأقام بها ثلاثة عشر يومًا ، وشاهد بها دور الخلافة والمدارس والحمامات ، كما شاهد بجهاتها كثيرًا من الخراب مما جعله يقرر فى يومياته أن بغداد (وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ..، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهير اسمها) .

وقد جاء وصف ابن جبير لأحوال بغداد وثيقة تاريخية كبرى ، فهو بالإضافة إلى ما جاء فى كتاب الخطيب البغدادى مثلاً أوضح تصوير لعاصمة العباسيين قبيل كارثة المغول على يد هولاكو وجنوده ، يرجع إليه المؤرخ ليقارن بينه وبين وصف بغداد بعد ذلك الحادث ، فيعرف بالضبط مدى ما أحدثه المغول بها .

وفضلاً عن ذلك ففى ثنايا وصف ابن جبير لبغداد ملاحظات دقيقة فى أحوال الخلافة العباسية فى أواخر القرن السادس ، منها وصف الخليفة الناصر لدين الله ، وقد رآه ابن جبير مرتين وهو يتطلع من منظرته بالقصر الخليفى، فإذا به (فى فناء من سنه، أشقر

اللحية صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرزاء ، سنه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابسًا وثوبًا أبيض شبه القباء ، برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية .. متعمدا بذلك زى الأتراك) .

ومن ملاحظات ابن جبير فى بغداد أيضًا جميع العباسيين كانوا فى الواقع معتقلين فى دورهم اعتقالاً جميلاً ، لا يخرجون ولا يظهرون ، وأنه لم يكن للخليفة نفسه وزير فى ذلك العصر ، إنما له قيم يعرف بالصاحب الأستادار ، يقوم على جميع شئون الدور الخليفية ، ويدعى له أثر الدعاء للخليفة .

هذا ولابن جبير ملاحظة عامة فى أهل بغداد ، وهى أنهم كانوا – كأهل روما فى أواخر أيام الدولة الرومانية – (لا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء .. قد تصور كل منهم فى معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادًا أو عبادًا سواهم) .

ترك ابن جبير بغداد إلى الموصل يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ٥٨٠ هـ (٢٨ مايو سنة ١١٨٤م) صحبة من بقى من الحجاج من أهل الشام وكردستان والعراق الأعلى ، وقد تأمر على الركب سلجوقة خاتون زوج نور الدين صاحب آمد ، وخاتون أم عز الدين صاحب الموصل . فمر بسامرا ، وهى سر من رأى عاصمة العباسيين أيام المعتصم والواثق والمتوكل ، فوجدها عبرة من رأى ، قد استولى عليها الخراب إلا بعض جهات قليلة .

ثم وصل تكريت ، وهو البلد الذى ولد فيه السلطان صلاح الدين ، وفيه كانت تنشئة بنى أيوب قبل أن يتصلوا بعماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود بالشام .

ثم نزل على الموصل فأقام بها أربعة أيام ، وشاهد استقبال الأمير عز الدين لوالدته ، ووصفه بأنه كان من أحفل المشاهد الدنيوية المريبة ، ولعله لم يعجبه بروز نساء البلد راكبات لاستقبال الأميرة وهى تدخل المدينة فى عسكر من الجوارى ، على أنه أعجب بحسن معاملة المواصلة للغرباء ، كما راقه ما رآه بالموصل نفسها من حصون ومدارس وجوامع ومارستانات .

ثم رحل ابن جبير إلى نصيبين ، ومنها إلى دارًا ، فماردين ، فدنيسر ، فرأ عين التى سميت بهذا الاسم لنبع نهير الخابور من عيون بقربها .

ولابن جبير ملاحظة لطيفة بصدد أمراء تلك البلاد، إذا شبههم بسلوك الطوائف بالأندلس، (كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين ، فلا تسمع إلا ألقابا هائلة ، وصفات لذى التحصيل غير طائلة .. ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خليق) ، إلا صلاح الدين الأيوبى الذى أفرده ابن جبير فى كل مناسبة بما هو قمين به من التبجيل ، فقال إن هذا (اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك فى سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردها التجريح) .

ثم وصل ابن جبير إلى حران ، فألقاها اسمًا على مسمى من شدة ما لاقاه من حرها ، ووصفها بأنها بلد لا حسن لديه قد اشتق اسمه من هوائه ، ثم رحل منها إلى سروج التى نسب الحريرى إليها أبا زيد السروجى بطل مقاماته .

وعبر ابن جبير الفرات عند سروج إلى قلعة نجم ، التى عرفت قبل باسم جسر منبج ، وصار بذلك فى مملكة صلاح الدين الأيوبى ، على أنه لم يشأ أن يفوت تلك الفرصى بدون أن يقرر أن حدود النفوذ الأيوبى كانت أبعد مدى من ذلك الحد الجغرافى ، وأن سيادة صلاح الدين كانت حقيقة ملموسة فى جميع البلاد التى مر بها من الموصل إلى سروج .

ثم قصد ابن جبير إلى حلب عن طريق الرحبة ومنبج والبزاعة والباب ، وقال بصدد حلب أنها سميت بذلك الاسم لأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب عندها غنمًا له ، ويتصدق بلبنها ، على أنها كانت حسبما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية من منشئات الحيثيين ، واسمها فى لغتهم حلاب ، ومنها اسم حلب الحالى .

ثم رحل ابن جبير من حلب إلى دمشق ، فمر على قنسرين وتل تاجر وباقدين ، وتمنى والمعرة وجبل لبنان ، وحماة والرستن وحمص ، وقد لاحظ أنه كان بكل مدينة من هذه المدن مارستان ، وأن جميع الخانات التى أوى إليها فى طريقه كانت كأنها القلاع امتناعا وحصانة وأمنا .

ووصف ابن جبير الجامع الأموى بدمشق وصفًا بديعًا وأنى على تاريخه تفصيلاً ، كما وصف حجرة الساعة الدقاقة به ، وسماها المنجانة كتسمية أهل الأندلس فى ذلك العصر للساعات الدقاقة التى اشتهرت بها بلادهم .

على أن عبارات ابن جبير بصدد ما شاهده بدمشق من المبانى والعمائر تشتمل على ملاحظات له ذات أهمية كبرى فى معرفة الحال الدينية والاقتصادية بالشام والشرق

الأدنى فى ذلك الوقت ، ومنها أن الشيعة كانوا أكثر من السنيين بدمشق والشام عامة ، وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى ، منهم الرافضة والزيدية والامامية والاسماعيلية والنصيرية والغرابية وغيرها . وفى ذلك دليل على أن الشيعة والدولة الفاطمية لم يكن قد ذهب ريحهما تماما على يد صلاح الدين .

على أن ابن جبير لم ينس أن يذكر طائفة من الطوائف السنية التى نشأت لمناهضة الشيعة فى ذلك العصر ، وهى طائفة النبوية ، وكانت تدين بالفتوة ، وتكفى الاشارة هنا إلى الفتوة وسراويلها ، فهى موضوع يحتاج حتى الآن لبحث طويل ، بدأه الأستاذ أحمد أمين بمقالة منذ سنوات ، ونرجو أن يتوفر عليه ليوضحه الناس .

أما ما جاء فى ابن جبير هنا بشأن الحال الاقتصادية بالشام ، فهو أن الحروب الصليبية بين دول المسلمين والفرنج لم تعطل من حركة التجارة بين رعية الفريقين فى أنحاء البلاد ، وقد دلل على ذلك بما شاهده من نشاط وتبادل بين دمشق الإسلامية وعكا الصليبية ، على الرغم من قيام صلاح الدين وقتئذ بحرب أرناط صاحب حصن الكرك ، ومحاصرته لذلك الحصن المانع لسبيل المسلمين بين الشام ومصر والحجاز . وهذا نص عبارة ابن جبير : (ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم ، شاهدنا فى هذا الوقت .. من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك .. فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره ، واختلاف القبائل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضًا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم ، وهى من الأمنة على غاية ، وتجار النصارى أيضًا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد) .

هذا وأنى أحيل من يطلب المزيد فى هذا الموضوع إلى مذكرات أسامة بن منقذ الشيزرى ، المعروفة باسم كتاب الاعتبار ، وإلى قصة الطلسم التى ربت حديثًا ليرى أن الحروب الصليبية لم تفسد كثيرًا من العلاقات الفردية بين أبناء الدينين ، محاربين ومدنيين .

وأخيرًا أزمع ابن جبير الرحيل عن دمشق إلى عكا بعد إقامة شهرين وزيادة ، ليركب البحر منها إلى بلاده ، ولا يكاد القارئ يأتى على الجملة الأولى من يوميات ابن جبير بصدد عكا ، حتى يأتى على عبارة فيها التفات ، وهى أن أسفار السفن من عكا فى الخريف – وهو أحسن أوقات السفر حين ذاك – كانت تعرف عند أهل الشام باسم (الصليبية) لتصليب أشرعة السفن موافقة للريح فى تلك الأسفار ، فهل استمد اسم الحملات والحروب الصليبية – التى كانت على أشدها إبان هذا الوقت – من ذلك الاسم العربى ، فجاءت تسمية دقيقة ورمية من غير رام .

هذا وقد سجل ابن جبير فى ثنايا مذكراته بصدد الطريق من دمشق إلى عكا ، وهو فى أرض الصليبيين أنهم كانوا يمكسون المسافرين من المغاربة دون جميع المسلمين بمكس إضافى عن المعتاد ، مقداره دينار صورى على الشخص الواحد ،وأن أصل ذلك المكس أن فئات من المغاربة اشتركت مع نور الدين بن زنكى فى جهاد الصليبيين ، فجزاهم الفرنج من وقتئذ بتلك الضريبة الاستثنائية .

وأهمية ذلك كله أن هنا مادة تاريخية لمعرفة مدى ما استجاب به المسلمون إلى نداء نور الدين ، ولتقرير ما خفى على بعض المؤلفين فى تاريخ الحروب الصليبية ، وهو أن المغاربة من المرابطين ثم الموحدين كانوا أول من أثار فكرة الجهاد العام ضد الحركة الصليبية لسبب واضح ، وأن تلك الحروب الدينية ثارت فى الواقع بالأندلس قبل أن تمتد إلى الشام .

ووصل ابن جبير عكا فى ١٠ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ (١٨ سبتمبر سنة ١١٨٤م) وكانت أهم ثغور الدولة الصليبية ، وقد شبهها ابن جبير فى العظم بالقسطنطينية التى لم يرها .

ثم علم أن مركبًا فرنجيًا على وشك الإبحار من مدينة صور إلى بجاية بتونس ، فذهب إلى صور يريد السفر ، غير أنه استصغر المركب ، فرجع إلى عكا بحرًا ، واكترى هناك مكانًا فى سفينة جنوية ، قصدها مسينة بصقلية ، فأبحرت به يوم الخميس ١٠ رجب (١٨ أكتوبر سنة ١١٨٤م) . وكانت تلك السفينة من سفن الحج التى أنشأتها المدن الإيطالية لنقل الحاج من المسلمين والنصارى .

وقد ذكر ابن جبير أن حجاج النصارى كانوا يعرفون باسم البلغريين ، وهو تعريب حرفى تقريبًا للكلمة اللاتينية (Peregrini) ، أو الإيطالية (Pellagrini) ، ومعناها

الحاج فى هاتين اللغتين ، كما قرر ابن جبير أن كلا من المسلمين والنصارى المسافرين اتخذ من السفينة مكانًا مستقلاً ، وأن السفينة نفسها كانت كالمدينة الجامعة ، بها كل ما يحتاج إليه المسافر من خبز وماء وفاكهة ، حتى البصل والثوم والجبن .

وقد ذكر ابن جبير أيضًا بصدد هذا السفر أن عددًا من حجاج المسلمين والنصارى توفى على ظهر السفينة ، فقذفوا فى البحر ، وورثهم رائس المركب، إذ كانت العادة أنه لا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه إذا مات فى البحر .

استغرقت تلك السفينة فى سفرها إلى مسينة شهرين ، وكان أقصاه فى العادة خمسة عشر يومًا ، فأرست على الشاطئ الصقلى يوم ٤ رمضان سنة ٥٨٠هـ (٩ ديسمبر ١١٨٤م) بعد عناء ورياح وأمواج كادت تذهب بها أكثر من مرة ، وقد تطلب ذلك كله مهارة وصبرًا فى قيادة السفينة وابدال ما تكسر من شرعها وقلاعها فى عرض البحر ،مما وصفه ابن جبير فى دقة وتفصيل ، فجاء ما كتبه فى هذا الصددوثيقة فى شرح فنون البحر فى العصور الوسطى .

وكانت جزيرة صقلية وجنوبى إيطاليا تابعة وقتئذ للنورمان (الشماليين) الذين أتوا فى أوائل القرن الحادى عشر من بلاد نورمانديا إلى جنوبى إيطاليا مرتزقة يطلبون الخدمة فى حروب الدويلات اللمباردية والولايات البيزنطية هناك ، وقد برزت الحوادث من بينهم روبرت جويسكارد (Robert Guiscard) الذى تملك على تلك البلاد وأسس منها مملكة واحدة ، ثم امتدت أطماعه إلى صقلية الإسلامية ، فانتزعها من ملوكها المتنازعين فيما بينهم بعد حروب دامت عشرين عامًا .

ويعتبر النورمان فى التاريخ من طلائع النشاط الذى حرك أوربا إلى دفع المسلمين عن فتوحهم المطلة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وقد ساهموا من بعد استيلائهم على صقلية فى الحروب الصليبية أيضًا ، وهدموا الدولتين الزيرية والحمادية بأفريقية ، واستولوا على المهدية سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) كما هددوا الدولة الفاطمية بمصر ، والدولة الموحدية بالأندلس .

والدولة النورمانية فى صقلية ، بحكم وضعها الجغرافى والزمنى ، هى فى الواقع أوج نماذج الحكم والإدارة والثقافة والمدنية فى التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى ، إذ التقت فيها المدنيات والثقافات الرومانية والمسيحية والبيزنطية ، والجرمانية والإسلامية والنورمانية ، وامتزجت هناك مزجًا لم يتم مثله فى غيرها من البلاد .

ومن شواهد ذلك فى كتاب ابـن جبـير أن النورمـان اسـتخدموا مـا وجـدوه مـن أنظمـة المسلمين فى حكم تلك البلاد ، واستأدوا بعض الزعماء فـى ترويـض النـاس علـى الحكـم النورمانى ، واستعملوا كثيرًا من المسـلمين علـى الوظـائف ولا سـيما فـى البـلاد الملكـى ، وسلكوا أبناءهم فى الجيش ، وحافظوا على بعض الأسماء العربية للوظائف ، كما سمحوا للمسلمين بقسط من الحرية الدينية ، ولم يسنوا أن يقرنـوا ذلـك بشـىء مـن الضغـط المـالى والتضييق على الحرية الشخصية لحمل من ضعف إيمانه على دخول المسيحية .

وقد جاء ما كتبه ابن جبير فى يومياته بصدد صقلية مصدقًا لكل ذلـك ، وكـان ملكـها غليام الثانى (William II) حينما نزل ابن جبير بعاصمتها بلازمة (Palermo) ، وهـذا نص ما جاء بيوميات ابن جبير بشأن هذا الملك ومبلـغ اعتمـاده علـى المسـلمين : (وشـأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسـلمين ، واتخـاذ الفتيـان المجـابيب ، وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن إليـهم فـى أحوالـه ، والمـهم مـن أشـغاله ، حتـى أن الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيـد السـود المسـلمين ، وعليـهم قـائد منـهم ، ووزراؤه وحجابـه الفتيـان ، ولـه منـهم جملـة كبـيرة ، هـم أهـل دولتـه والمترسمون بخاصته .

(ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وأما جواريه وحظايـاه فـى قصره فمسلمات كلهن ، ومن أعجب ما حدثنا به خديمه يحيـى بـن فيتـان الطـراز ، أن الافرنجية من النصرانيات تقع فـى قصـره فتعـود مسـلمة ، تعيدهـا الجـوارى المذكـورات مسلمة ، وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ، ما منـهم إلا من يصوم الأشهر تطوعًا وتأخرًا) .

على أنه لا يجب أن يؤدى ذلك الوصف الخاص ببـلاط الملـك إلى الاعتقـاد بـأن عامـة المسلمين بصقلية النورمانية كانوا أسعد حالاً من اخوانهم فى البـلاد المسـيحية الأخـرى ، فعلى الرغم من الجوامع والمساجد والزوايـا . والأسـواق والربـاع الإسـلامية التـى شـاهدها ابن جبير بمدن صقلية ، قد ضرب النورمان على المسـلمين أتـاوة تدفـع مرتـين فـى العـام الواحد، وحالوا بينهم وبين تملك الأرض ، بل كان المسلمون الملحقون بخدمة غليام كلـهم أو أكثرهم كاتم إيمانه ، وكذلك نسوة القصر من المسلمات ، فإذا حان وقـت الصـلاة وهـم فى خدمة الملك ، خرجوا أفذاذًا من حضرته ليقضوا صلاتهم ، وهذا فضلاً عن أنه لم يكن للمسلمين جمعة، بسبب الخطبة المحظورة عليهم .

ولقد زار ابن جبير من بلاد صقلية مدينة مسينة التى أرسى عندها أولاً ، ثم شفلودى وثرمة وبالرمة وعلقمة وحصن الحمة وأطرابنش (Atrepanes) . ثم أقلع من ميناء المدينة الأخيرة يوم الاثنين ٢١ ذى الحجة سنة ٥٨٠هـ (٢٥ مارس سنة ١١٨٤م) على ظهر سفينة جنوية إلى الأندلس ، فوصل قرطاجنة يوم الخميس ١٥ المحرم سنة ٥٨١هـ ، وسافر منها إلى مرسية ثم لبرالة ثم لورقة ثم المنصورة ثم قنالش (Caniles) حتى وصل إلى منزله بغرناطة ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ (٢٥ أبريل سنة ١١٨٤م) .

لم يقل ابن جبير بعد رحلته هذه بالأندلس طويلاً ، بل رحل إلى الشرق ثانية ، ويقال بصدد ذلك نقلاً عن كتاب الاحاطة بتاريخ غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، أنه لما شاع الخبر باستيلاء السلطان صلاح الدين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، عزم ابن جبير على الرحلة للحج ثانية ، فسافر من غرناطة فى ٩ ربيع الأول سنة ٥٨٥هـ (٢٧ أبريل سنة ١١٨٩م) .

ولست أعلم من تفصيلات تلك الرحلة سوى القصيدة التى نظمها ابن جبير ليشكو بها إلى صلاح الدين عسف رجاله وأمنائه بالحجاج فى ميناء الإسكندرية ، وهى قصيدة طويلة فى ثلاثة وخمسين بيتًا ، وقد أشار فيها ابن جبير إلى الفتح الصلاحى لبيت المقدس . وقد رجع ابن جبير من رحلته هذه إلى غرناطة فى ١٣ شعبان سنة ٥٨٧هـ (٥ سبتمبر سنة ١١٩١م) .

ثم انتقل ابن جبير عن غرناطة إلى مالقة ، ثم سبتة ، ثم فاس ، وانقطع إلى اسماع الحديث والتصوف وتروية الشعر . على أنه لم يقم بالمغرب طويلاً تلك المرة أيضًا ، بل رحل إلى الشرق مرة ثالثة ٦١٤هـ (١٢١٧م) . وسبب تلك الرحلة – حسبما ورد فى كتاب الإحاطة أيضًا – أن زوجته عاتكة بنت الوزير الوقشى ماتت ، وكان كلفه بها جمًا ، فعظم وجده عليها ، فرحل إلى مكة وجاور بها ، ثم انتقل عنها إلى بيت المقدس ، وتحول بعد ذلك إلى الإسكندرية ،فأقام يحدث ويؤخذ عنه حتى توفى بها فى شهر شعبان من السنة المتقدمة ، وكان قد جاوز السبعين .

المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة

ترجمة المؤلف

قال ابن الخطيب فى كتابه « الإحاطة فى أخبار غرناطة »[1] عن صاحب هذا العمل :

هو محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكنانى الواصل إلى الأندلس .

أوليته

دخل جده عبد السلام بن جبير الأندلسى ، فى طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيرى، فى محرم سنة ١٢٣هـ، وكان نزوله بكورة شذونة ، وهو من ولد ضمرة بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس ، بلنسى الأصل ، ثم غرناطى الاستيطان ، شرَّق وغرَّب ، وعاد إلى غرناطة .

حاله

كان أديبًا بارعًا ، شاعرًا مجيدًا ، سنيًا فاضلاً ، نزيه الهمة ، سرى النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة . كتب بسبتة عن أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، وبغرناطة عن غيره من ذوى قرابته ، وله فيهم أمداح كثيرة ، ثم نزع عن ذلك ، وتوجه إلى المشرق، وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته . ونظمه فائق ، ونثره بديع ، وكلامه المرسل سهل حسن ، وأغراضه جليلة ، ومحاسنه ضخمة ، وذكره شهير ، ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار . رحمه الله .

رحلته

قال من عنى بخبره : رحل ثلاثًا من الأندلس إلى المشرق ، وحج فى كل واحدة منها . فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس ، لثمان خلون من شوال سنة ٥٧٨ ، صحبة أبى جعفر بن حسان ، ثم عاد إلى وطنه غرناطة لثمان بقين من محرم عام ٨١ ، ولقى بها

---

(١) قام بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ المرحوم محمد عبد الله عنان ويقع فى ٤ أجزاء . نشر فى دار الخانجى – القاهرة ١٩٧٨م .

أعلامًا . يأتى التعريف بهم فى مشيخته ، وصنف الرحلة المشهورة ، وذكر ما نقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع . وهو كتاب مؤنس ممتع ، مثير سواكن النفوس إلى تلك المعالم .

ولما شاع الخبر المبهج بفتح (بيت) المقدس ، على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى ، قوى عزمه على أعمال الرحلة الثانية . تحرك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة ٥٨٥هـ ، ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة ٥٨٧هـ ، وسكن غرناطة ، ثم مالقة ، ثم سبتة ، ثم فاس ، منقطعًا إلى اسماع الحديث ، والتصوف ، وترويه ما عنده . وفضله بديع وورعه يتحقق ، وأعماله الصالحة تذكر .

ثم رحل الثالثة من سبتة بعد موت زوجه عاتكة ، أم المجد ، بنت الوزير أبى جعفر الوقشى - وكان كلفه بها جما ، فعظم وجده عليها - فوصل مكة ، وجاور بها طويلاً ، ثم بيت المقدس ، ثم تحول لمصر والإسكندرية ، فأقام يحدِّث ، ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه .

شيوخه

روى بالأندلس عن أبيه ، وأبى الحسن بن محمد بن أبى العيش ، وأبى عبد الله بن أحمد بن عروس ، وابن الأصيلى ، وأخذ العربية عن أبى الحجاج بن يسعون ، وبسبتة عن أبى عبد الله بن عيسى التميمى السبتى .

وأجاز له أبو الوليد بن سبكة ، وأبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الغسانى التونسى، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى التميمى السبتى، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشى الميانشى نزيل مكة، وأبو جعفر أحمد بن على القرطبى الفنكى، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن على بن إبراهيم محمد البغدادى، وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخجندى رئيس الشافعية بأصبهان . وببغداد العالم الواعظ المستبحر ، نادرة الفلك ، أبو الفرج - وكناه أبا الفضائل ابن الجَوْزى - وحضر بعض مجالسه الوعظية ، فشاهد رجلاً ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد . وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن على بن عبد الله بن عباس السلمى الجوارى ، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون ، وأبو الطاهر بركات الخشوعى وسمع

عليه ، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهانى ، من أئمة الكتاب، وأخذ عنه بعض كلامه وغيره ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن على بن عساكر وسمع عليه ، وأبو الوليد إسماعيل بن على بن إبراهيم ، والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الربعى ، وعبد الرحمن بن إسماعيل بن أبى سعيد الصوفى ، وأجازوا له ، وبحَرَّان المتكلم الصوفى العارف أبو البركات حيان بن عبد العزيز ، وابنه الحاذى حذوه .

من أخذ وروى عنه

قال ابن عبد الملك : أخذ عنه أبو إسحاق بن مهيب ، وابن الواعظ وأبو تمام ابن إسماعيل ، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائى، وأبو الحسن الشارى، وأبو سليمان بن حوط الله، وأبو زكريا، وأبوبكر يحيى بن محمد بن أبى الغمر، وأبو عبدالله بن حسين بن مجبر، وأبوالعباس بن عبدالمؤمن البنانى، وأبومحمد بن الحسن اللوابى بن تامتيت، وابن محمد المورورى، وأبوعمرو بن سالم، وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمى التونسى .

وممن روى عنه بالإسكندرية : رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله ، وبمصر رشيد الدين بن عطار ، وفخر القضاة ابن الجباب ، وابنه جمال القضاة .

مؤلفاته وتصانيفه

منها نظمه، قال ابن عبد الملك : وقفت منه على مجلد يكون على قدر ديوان أبى تمام حبيب بن أوس ، وجزء سماه (نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح) فى مراثى زوجه أم المجد ، وجزء سماه (نظم الجمان فى التشكى من اخوان الزمان) ، وله ترسيل بديع ، وحكم مستجادة ، وكتاب رحلته . وكان أبو الحسن الشارى يقول : انها ليست من تصانيفه ، وإنما قيد معانى ما تضمنته ، فتولى ترتيبها وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه على ما تلقاه . والله أعلم .

شعره

من ذلك القصيدة الشهيرة التى نظمها وقد شارف المدينة المكرمة طيبة ، على ساكنها من الله أفضل الصلوات وأزكى التسليم :

أقول وأنت بالليل نارا لعل سراج الهدى قد أنارا
وإلا فما بال أفق الدجى كأن سنا البرق فيه استطارا
ونحن من الليل فى حندس فما باله قد تجلى نهارا
وهذا نسيم شذا المسك قد أعير أم المسك منه استعارا
وكانت رواحلنا تشتكى وجاها فقد سبقتنا ابتدارا
وكنا شكونا عناء السرى فعدنا نبارى سراع المهارا
أظن النفوس قد استشعرت بلوغ هوى تَخِذتْه شعارا
بشائر صبح السرى آذنت بأن الحبيب تدانى مزارا
جرى ذكر طيبة ما بيننا فلا قلب فى الركب إلا وطارا
حنينا إلى أحمد المصطفى وشوقا يهيج الضلوع استعارا
ولاح لنا أحد مشرقا بنور من الشهداء استنارا
فمن أجل ذلك ظل الدجى يحل عقود النجوم انتثارا
ومن ذلك الترب طار النسيم نشرا ، وعم الجهات انتشارا
ومن طرب الركب حث الخطى إليها ونادى البدار البدارا
ولما حللنا فناء الرسول نزلنا بأكرم خلق جوارا
وحين دنونا لفرض السلام قصرنا الخطى ولزمنا الوقارا
فما نرسل اللحظ إلا اختلاسا ولا نرفع الطرف إلا انكسارا
ولا نظهر الوجد إلا اكتتاما ولا نلفظ القول إلا سرارا
سوى أننا لم نطق أعينا بأدمعها غلبتنا انفجارا
وقفن بروضة دار السلام نعيد السلام عليها مرارا
ولولا مهابته فى النفوس لثمنا الثرى والتزمنا الجدارا
قضينا بزورته حجنا وبالعمرتين ختمنا اعتمارا
إليك إليك نبى الهدى ركبت البحار وجبت القفارا
وفارقت أهلى ولا منة ورب كلام يجر اعتذارا
وكيف نمن على من به نؤمل للسيئات اغتفارا
دعانى إليك هوى كامن أثار من الشوق ما قد أثارا
فناديت لبيك داعى الهدى وما كنت عنك أطيق اصطبارا
ووطنت نفسى بحكم الهوى علىَّ وقلت رضيت اختيارا

openkanal.com

أخـوض الدجـى وأروض السـ ... ـرى ولا أطعـم النوم إلا غـرارا
ولـو كنت لا أستطيـع السبيل ... لطـرت ولـو لـم أصادف مطارا
وأجـدر من نـال منـك الرضي ... محب ثـراك على البعـد ثارا
عسي لحظـة منـك لى فـى غد ... تمهـد لى فى الجِنـان القـرارا
فمـا ضـل من بمسـراك اهتـدى ... ولا ذل مـن بـذراك اسـتجارا

وفى غبطة من مَنَّ الله عليه بحـج بيتـه ، وزيـارة قـبر نبيـه صلـى الله عليـه وسلم ، يقول :

هنيئـا لمن حج بيت الـهدى ... وحـط عن النفـس أوزارهـا
وان السـعادة مضـمونة ... لمن حـج طيبـة أو زارهـا

وفى مثل ذلك يقول :

إذا بلـغ المـرء أرض الحجـاز ... فقد نـال أفضـل ما أمَّ لـه
وإن زار قـبر نبى الهـدى ... فقـد أكمـل الله مـا أملـه

وقال فى تفضيل المشرق :

لا يستوى شـرق البـلاد وغربها ... الشـرق حاز الفضـل باستحقاق
انظـر ترى الشـمس عند طلوعها ... زهـوا يعجب بهجـة الاشـراق
وانظـر لهـا عند الغروب كهيئة ... صـفراء تعقـب ظلمـة الآفـاق
وكفـى بيـوم طلوعهـا من غربهـا ... أن تؤذن الدنيـا بعـزم فراق

وقال فى الوصايا :

عليـك بكتمـان المصائب واصطبر ... عليهـا فمـا أبقى الزمان شقيقا
كفـاك بشـكوى الناس إذ ذاك أنها ... تسـر عـدوا أو تسـوء صـديقا

وقال :

ومصانـع المعـروف فلتة غافل ... ان لـم تضعهـا فى محل عاقل
كالنفس فى شهواتهـا ان لم تكن ... وقفـا لهـا عـادت بضـر عاجل

نثره

من حكمه قوله : إن شرف الإنسان فبشرف وإحسان ، وإن فاق فبفضل وارفاق ، ينبغى أن يحفظ الإنسان لسانه كما يحفظ الجفن إنسانه ، فرب كلمة تقال تحدث عثرة لا تقال ، كم كست فلتات الألسنة الحداد من ورائها ملابس الحداد ، نحن فى زمان لا يحظى فيه بنفاق إلا من عامل بنفاق .

شغل الناس عن الطريق بزخارف الأعراض ، فمخوا الصدور عنها والأعراض . آثروا دنيا هى أضغاث أحلام ، وكم هفت فى حبها من أحلام ، أطالوا فيها آمالهم ، وقصروا أعمالهم ، ما بالهم لم يتفرغوا لغيرها ! ما لهم فى غير ميدانها استباق ، ولا لسوى هداها اشتياق .

تالله لو كشف الأسرار ، لما كان هذا الأسرار ، لسهرت العيون ، وتفجرت شئونها الجفون ، فلو أن عين بصيرة من سنتها هابة ، لرأت جميع ما فى الدنيا ريحا هابة ، ولكن استولى العمى على البصائر ، ولا يعلم الإنسان ما إليه صائر . أسأل الله هداية سبيله ، ورحمة تورد نسيم الفردوس وسلسبيله ، إنه الحنَّان المنَّان ، لا رب سواه .

ومنها : فلتات الهبات أشبه شىء بفلتات الشهوات : منها نافع لا يُعْقِب ندما ، ومنها ضار يبقى فى النفس ألمًا . فضرر الهبة وقوعها عند من لا يعتقد لحقها أداء ، وربما أثرت عنده اعتداء ، وضرر الشهوات إن لم تواقف ابتداء ، فتصير لتيعها داء ، مثلها كمثل المسكر يلتد صاحبه بحلاوة جناه ، فإذا صحا يعرف ما قد جناه ، وعكس هذه القضية هى الحالة المرضية .

مولده : ببلنسية سنة ٥٣٩هـ ، وقيل بشاطبة سنة ٥٤٠هـ .

وفاته : توفى بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان سنة ٦١٤هـ .

ويضيف المقريزى كلامه عن ابن جبير فى كتابه «المقفى» [1] فيقول:

هو محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير ابن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبدالسلام بن جبير، الداخل إلى الأندلس، من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، أبو الحسين بن أبى جعفر الكنانى الأندلسى البانسى.

---

(١) قام بتحقيق الجزء الأول منه الدكتور أحمد أمين وقدم له الدكتور طه حسين.

مولده: ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠هـ ببلنسية، وقيل فى مولده غير ذلك.

وسمع من أبيه بشاطبة، ومن أبى عبد الله الأصيلى، وأبى الحسن بن أبى العيش، وأخذ عنه القراءات، وعنى بالآداب فبلغ الغاية فيه، وتقدم فى صناعة القريض وصناعة الكتابة، ونال بها دنيا عريضة، ثم رفضها وزهد فيها، وحدث بكتاب الشفاء عن أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى السبتى، عن القاضى عياض، وتوجه إلى الحج، ودخل بغداد والشام، وسمع بهما.

وقدم مصر، فسمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى، والحافظ أبو الحسين يحيى ابن على القرشى، وتوفى فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤هـ.

ثم يتحدث المقرى رحمه الله فى كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»[1] فى الباب الخامس عن المؤلف فيقول:

ومنهم - يعنى من الراحلين إلى المشرق من الأندلس - «أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير» الكنانى، صاحب الرحلة، وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، أندلسى شاطبى بلنسى، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠هـ ببلنسية، وقيل فى مولده غير ذلك.

وسمع من أبيه بشاطبة، ومن أبى عبد الله الأصيلى، وأبى الحسن بن أبى العيش، وأخذ عنه القراءات، وعنى بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقدم فى صناعة القريض والكتابة.

ومن شعره قوله - وقد دخل إلى بغداد، فاقتطع غصنًا نضيرًا من أحد بساتينها، فذوى فى يده:

لا تغترب عن وطن ... واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا ... ما فارق الأصل ذوى

وقال رحمه الله يخاطب صدر الخجندى:

يا من حواه الدين فى عصره ... صدرا يحل العلم فيه فؤاد
ماذا يرى سيدنا المرتضى ... فى زائر يخطب منه الوداد
لا يبتغى منه سوى أحرف ... يعتدها أشرف زخر يفاد
ترسمها أنمله مثل ما نمق ... زهر الروض كف العهاد

(١) قام بتحقيق الكتاب محمد محيى الدين ثم بعده الدكتور إحسان عباس.

فـى رقعـة كالصبح أهـدى لهـا ... يد المعـالى مسـك ليـل المـداد
اجـازة يورثنيهـا العـلى ... جـائزة تبـقى وتفـنى البـلاد
يستصحب الشكر خديمـا لهـا ... والشـكر للامجـاد أسـنى عتـاد

فأجابه الصدر الخجندى:

لك اللّـه مـن خـاطب خـلتى ... ومـن قـابس يجتـدى سـقط زندى
أجـزت لـه مـا أجـازوه لـى ... ومـا حـدثـوه ومـا صـح عنـدى
وكـاتب هـذى السـطور التى ... تـراهـن عبـد اللطيف الخجنـدى

ورافق ابن جبير فى هذه الرحلة أبـو جعفـر أحمـد بـن حسـان بـن أحمـد بـن الحسن القضاعى وأصله من أندة من عمل بلنسية، رحل معه فأديًا الفريضة، وسمعًا بدمشق عن أبى الطاهر الخشُوعى، وأجاز لهما أبو سعيد بن أبـى عصـرون، وأبـو محمـد القاسـم بـن عساكر وغيرهما، ودخلاً بغداد، وتجولاً مدة، ثم قفلاً جميعا إلى المغرب، فسمع منهما بـه بعض ما كان عندهما.

وكان أبو جعفر هذا متحققًا بعلم الطب، وله فيه تقييد مفيد، مع المشاركة الكاملـة فـى فنون العلم، وكتب عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن، وجـده لأمـه القاضى أبـو محمـد عبد الحق بن عطية. وتوفى أبـو جعفـر هـذا بمراكـش سـنة ٥٩٨هـ أو ٥٩٩هـ ولم يبلـغ الخمسين فى سنه، رحمه الله.

رجع إلى ابن جبير: قال لسان الدين فى حقه: أنه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة فى الآداب، وله الرحلة المشهورة، واشتهرت فى السلطان الناصر صـلاح الديـن ابن أيوب له قصيدتان إحداهما أولها:

أطلت عـلى أفقـك الـزاهـر ... سـعود مـن الفـلك الـدائـر

ومنها قوله:

رفعت معـارم مـكس الحجـاز ... بانعـامـك الشـامـل الغـامـر
وآمنت أكنـاف تـلك البـلاد ... فـهان السـبيل عـلى العـابـر
وسـحب أياديـك فيـاضـة ... عـلى وارد وعـلى صـادر
فـكم لـك بالشـرق مـن حـامـد ... وكـم لـك بـالغـرب مـن شـاكـر

والأخرى منهما فى الشكوى بابن شكر، الذى كان آخذ المكس من الناس فى الحجاز:

obeikandi.com

وما نال الحجاز بكم صلاحا وقد نالته مصر والشام

ومن شعره:

أخلاء هذا الزمان الخئون توالت عليهم حروف العلل
قضيت التعجب من بابهم فصرت أطالع باب البدل

وقوله:

غريب تذكر أوطانه فهيَّج بالذكر أشجانه
يحل عرى صبره بالأسى ويعقد بالنجم أجفانه

وقال رحمه الله لما رأى البيت الحرام، زاده الله شرفًا:

بدت لى أعلام بيت الهدى بمكة والنور باد عليه
فأحرمت شوقا له بالهوى وأهديت قلبى هديا إليه

وقوله يخاطب من أهدى له موزًا:

يا مهدى الموز تبقى وميمه لك فاء
وزايه عن قريب لن يعاديك تاء

وقال رحمه الله:

قد ظهرت فى عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى فى الدين الا بما سن ابن سينا وأبو نصر

وقال:

يا وحشة الإسلام من فرقة شاغلة أنفسها بالسفه
قد نبذت دين الهدى خلفها وادعت الحكمة والفلسفه

وقال:

ضلت بأفعالها الشنيعة طائفة عن هدى الشريعة
ليست ترى فاعلاً حكيماً بفعل شيئًا سوى الطبيعة

وكان انفصاله، رحمه الله، من غرناطة، بقصد الرحلة المشرقية، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨هـ ، ووصل الإسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذى القعدة الحرام من السنة. فكانت اقامته على متن البحر من الأندلس إلى الإسكندرية

ثلاثين يومًا، ونزل البر الاسكندرانى فى الحادى والثلاثين، وحج رحمه الله، وتجول فى البلاد، ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها.

وكان رحمه الله – كما قال ابن الرقيق – من أعلام العلماء العارفين بالله. كتب فى أول أمره عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة، فاستدعاء لأن يكتب عنه كتابًا، وهو على شرابه، فمد يده إليه بكأس، فأظهر الانقباض، وقال. يا سيدى ما شربنها قط، فقال: والله لتشربن منها سبعًا.

فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات، وصب ذلك فى حجره، فحمله إلى منزله، وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، ثم رغب للسيد وأعلمه أنه حلف بأيمان، لا خروج له عنها، أنه يحج فى تلك السنة، فأسعفه، وباع ملكًا له تزوَّد به، وأنفق تلك الدنانير فى سبيل البر.

ومن شعره فى جارية تركها بغرناطة:

طول اغتراب وبرح شوق ... لا صبر والله لى عليه
إليك أشكو الذى ألاقى ... يا خير من يشتكى إليه
ولى بغرناطة حبيب ... قد غلق الرهن فى يديه
ودعته وهو بارتحاض ... يظهر لى بعض ما لديه
فلو ترى طل نرجسية ... ينهل فى ورد وجنتيه
أبصرت درا على عقيق ... من دمعه فوق صفحتيه

وله رحلة مشهورة بأيدى الناس.

ولما وصل بغداد تذكر بلده:

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ... ورد إلى الأوطان كل غريب

(انتهى)

وقال فى رحلته فى حق دمشق: جنة المشرق، ومطلع حسنة لمؤنق المشرق.. إلخ.

قال العلامة ابن جابر الوادى آشى، بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق، ما نصه: ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد. هذا ولم تكن له بها إقامة فيعرب عنها بحقيقة علامة، وما وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من

الشمس غروب، ولا أزمان فصولها المنوعات، ولا أوقات سرورها المهنئآت، وقد اختصر من قال ألفيتها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. انتهى.

رجع إلى كلام ابن جبير، فتقول: ثم ذكر في وصف الجامع أنه من أشهر جوامع الإسلام حسنا وإتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنسيق وتزيين.. إلخ. ثم مد النفس في وصف الجامع، وما به من العجائب.

ثم قال بعد عدة أوراق ما نصه: وعن يمين الخارج من باب جيرون، في جدار البلاط الذى أمامه، غرفة، ولها هيئة طاق كبير، إلخ.

* * *

وحكى ابن سعيد وغيره أن غرناطة تسمى دمشق الأندلس، لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأندلس، وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار، وقد أطل عليها جبل الثلج، وفى ذلك يقول ابن جبير صاحب الرحلة:

يا دمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجرى وهى تنصب إليها

قال ابن سعيد: أشار ابن جبير إلى أن غرناطة في مكان مشرف، غوطتها تحتها تجرى فيها الأنهار، ودمشق في وهدة تنصب إليها الأنهار، وقد قال الله تعالى في وصف الجنة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (1)، انتهى.

* * *

رجع إلى ابن جبير رحمه الله، ومن شعره قوله:

اياك والشهوة في ملبس والبس من الأثواب أسمالها
تواضع الإنسان في نفسه أشرف للنفس وأسمى لها

وقال:

تنزه عن العوراء مهما سمعتها صيانة نفس، فهو بالحر أشبه
إذا أنت جاوبت السفيه مشاتما فمن يتلقى الشتم بالشتم أسفه

وقال:

(1) سورة التوبة الآيات ٧٢، ٨٩، ١٠٠.

أقول وقد حان الوداع وأسلمت قلوب إلى حكم الأسى ومدامع
أيا رب أهلي في يديك وديعة وما عدمت صونا لديك الودائع

وقال أبو عبد الله بن الحاج، المعروف بمدغليس، صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكور:

لأبي الحسين مكارم لو أنها عدت لما فرغت ليوم المحشر
وله على فضائل قد قصرت عن بعض نعماها عظام الأبحر

وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها:

يا وفود الله فزتم بالمنا فهنيئا لكم أهل منى
قد عرفنا عرفات بعدكم فلهذا بريح الشوق بنا
نحن في الغرب ويجرى ذكركم بغروب الدمع يجرى هتنا

ومنها:

فيناديه على شحط النوى من لنا يوما فقلت ملنا
سر بنا يا حادى الركب عسى أن نلاقى يوم جمع سر بنا
ما دعا داعى النوى لما دعا غير صب شفه برح العنا
شم لنا البرق إذا لاح وقل جمع الله بجمع شملنا
علنا نلقى خبالا منكم بلذيذ الذكر وهنا علنا
لو حنا الدهر علينا لقضى باجتماع بكم بالمنحنى
لاح برق موهنا من نحوكم فلعمرى ما هَنَا العيش هَنَا
أنتم الأحباب نشكو بُعدكم هل شكوتم بُعدنا من بَعدنا

وله رحمه الله قصيدة مطولة أولها:

لعل بشير الرضى والقبول يعلل بالوصل قلب الخليل

وله أخرى أنشدها عند استقباله المدينة المشرفة، على صاحبها الصلاة وأتم السلام، وهى ثلاثة وثلاثون بيتا من الغر، أولها:

أقول وآنست بالليل نارا . . . . (الأبيات الثلاثة)

وكان أبو الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالأدب دنيًا عريضة ، ثم رفضها وزهد فيها .

وقال صاحب الملتمس فى حقه: الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير، ممن لقيته وجالسته كثيرًا، ورويت عنه، وأصله من شاطبة، وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها، ذكره ابن اليسع فى تاريخه. ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه، وتولع بغرناطة فسكن بها.

قال: ومما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد بأشبيلية:

أبا عمران قد خلفت قلبى ... لديك وأنت أهل للوديعه
صحبت بك الزمان أخا وفاء ... فها هو قد تنمر للقطيعه

وآمنت أكناف تلك البلاد

قال: وكان من أهل المروءات، عاشقًا فى قضاء الحوائج، والسعى فى حقوق الاخوان، والمبادرة لا يناس الغرباء، وفى ذلك يقول:

يحسب الناس بأنى متعَب ... فى الشفاعات وتكليف الورى
والذى يتعبهم من ذاك لى ... راحة فى غيرها لن أفكرا
وبودى لو أقضى العمر فى ... خدمة الطلاب حتى فى الكرى

قال: ومن أبدع ما أنشده، رحمه الله، أول رحلته:

طال شوقى إلى بقاع ثلاث ... لا تشد الرحال إلا إليها
ان للنفس فى سماء الأمانى ... طائرا لا يحوم إلا عليها
قص منه الجناح فهو مهيض ... كل يوم يرجو الوقوع لديها

وقال:

إذا بلغ العبد أرض الحجاز.. البيتين.

وعاد، رحمه الله، إلى الأندلس بعد رحلته الأولى التى حل فيها دمشق والموصل وبغداد، وركب إلى المغرب من عكا مع الإفرنج، فعطب فى خليج صقلية الضيق، وقاسى شدائد إلى أن وصل الأندلس سنة ٥٨١هـ، ثم أعاد المسير إلى المشرق بعد مدة إلى أن مات بالإسكندرية كما تقدم.

ومن شعره أيضًا:

لى صديق خسرتُ فيه ودادى ... حين صارت سلامتى منه ربحا
حسن القول سيئ الفعل كالجز ... ارسمى وأتبع القول ذبحا

وحدث، رحمه الله، بكتاب «الشفاء» عن أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى، عن القاضى عياض. ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى، وأبو الحسين يحيى ابن على القرشى.

وتوفى ابن جبير بالإسكندرية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤هـ، والدعاء عند قبره مستجاب، قاله ابن الرقيق رحمه الله. وقال ابن الرقيق: فى السنة بعدها.

وقال أبو الربيع بن سالم: أنشدنى أبو محمد عبد الله بن التميمى البجائى – ويعرف بابن الخطيب – لأبى الحسين بن جبير، وقال وهو مما كتب به إلى من الديار المصرية فى رحلته الأخيرة، لما بلغه ولايتى قضاء سبتة، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك، وتوفيت هنالك زوجته بنت أبى جعفر الوقشى فدفنها بها:

بسبتة لى سكن فى الثرى ... وخل كريم إليها أتى
فلو أستطيع ركبت الهوى ... فزرت بها الحى والميتا

وأنشد ابن جبير، رحمه الله، لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى إلى غرناطة، أو فى طريقها قوله:

لى نحو أرض المنى من شرق أندلس ... شوق يؤلف بين الماء والقبَس

إلى آخرها. ومن شعره قوله:

يا خيرَ مولى دعاه عبد ... أعمل فى الباطل اجتهاده
هب لى ما قد علمت منى ... يا عالم الغيب والشهاده

وقال رحمه الله:

وأنى لأوثر من أصطفى ... وأغضى على زلة العاثر
وأهوى الزيارة ممن أحب ... لأعتقد الفضل للزائر

وقال رحمه الله:

عجبت للمرء فى دنياه تطمعه ... فى العيش والأجل المحتوم يقطعه
يمسى ويصبح فى عشواء يخبطها ... أعمى البصيرة والآمال تخدعه
يغتر بالدهر مسرورا بصحبته ... وقد تيقن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه ... وقد درى أنه للغير يجمعه

تـراه يشـفق من تضـييع درهمـه ... وليـس يشـفق من ديـن يضيعـه
وأســوأ الـنـاس تدبيـرا لعاقبـة ... من أنفق العمـر فيمـا ليس ينفعـه

وقال:

صـبرت على غـدر الزمـان وجعده ... وشـاب لى السَـمَّ الذعـاف بشهده
وجربـت إخـوان الزمـان فلم أجد ... صديقا جميل الغيب فى حال بعده
وكـم صـاحب عاشـرته وألفتـه ... فما دام لى يومـا على حسـن عهده
وكـم غـرَّنى تحسينُ طـنى به فلم ... يضىء لى على طول اقتداحى لزنده
وأغـرب من عنقاء فى الدهر مغرب ... أخـو ثقـة يسقيـك صـافىَ وده
بنفسـك صـادم كل أمـر تريده ... فليس مضـاء السـيف إلا بعـده
وعزمَـك جـرُد عند كـل مهمـة ... فما نافع مـكـث الحسـام بغمده
وشـاهدت فى الأسـفار كل عجيبة ... فـلم أر مـن قـد نـال جَدًّا بجِده
فكن ذا اقتصـاد فى أمـورك كلها ... فأحسـن أحوال الفتى حسن قصده
وما يحـرم الإنسـان رزقـا لعجزه ... كما لا ينـال الرزق يومـا بـكده
حظـوظ الفتى من شقـوة وسـعادة ... جـرت بقضـاء لا سـبيل لرده

وقال:

الناس مثل ظروف حشـوها صِّير ... وفوق أفواههـا شىء من العسـل
تغـر ذائقهـا حـتى إذا كشفـت ... لـه تبين ما تحويه من دخـل

وقال:

تغيـر إخـوان هـذا الزمـان ... وكـل صديق عـراه الخلـل
وكـانـوا قديمـا عـلى صحة ... فـقد داخلـتهم حـروف العـلل
قضيـت التعجـب مـن أمـرهم ... فصـرت أطـالع بـاب البـدل

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثـة علـى وجـه آخـر أول ترجمـة المذكـور، ورأيـت بخـط ابن سعيد البيتين على وجه آخر وهو قوله:

ثـكلـت أخـلاء هـذا الزمـان ... فعنـدى ممـا جنـوه خلـل
قضيـت التعجـب مـن شـأنهم ... فصـرت أطـالع بـاب البـدل

انتهى.

ولابن جبير رحمه الله تعالى:

من الله فاسأل كل أمر تريده ... فما يملك الإنسان نفعا ولا ضرا
ولا تتواضع المولاة فإنهم ... من الكبر فى حال تموج بهم سكرا
واياك أن ترضى بتقبيل راحة ... فقد قيل عنها أنها السجدة الصغرا

وهو نحو قول القائل:

أيها المستطيل بالبغى أقصر ... ربما طأطأ الزمان الرؤوسا
وتذكر قول الاله تعالى ... إن قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندتة من قرى مصر:

شهدنا صلاة العيد فى أرض غربة ... بأجواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لخلى فى النوى جُدْ بمدمع ... فليس لنا إلا المدامع قربان

وقال ابن جبير:

قد أحدث الناس أمورا فلا ... تعمل بها انى امرؤ ناصح
فما جماع الخير إلا الذى ... كان عليه السلف الصالح

وقال:

رب إن لم تؤتنى سعة ... فاطو عنى فضلة العَمُر
لا أحب اللبث فى زمن ... حاجتى فيه إلى البشر
فهم كسر لمنجبر ... ما هم جبر لمنكسر

ولما وصل ابن جبير، رحمه الله، مكة ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ، أنشد قصيدته التى أولها:

بلغت المنى وحللت الحرم ... فعاد شبابك بعد الهرم
فأهلا بمكة أهلا بها ... وشكرا لمن شكره يلتزم

وهى طويلة، وسيأتى بعضها.

وقال رحمه الله عند تحركه للرحلة الحجازية:

أقول وقد دعا للخير داع ... حننت له حنين المستهام
حرام أن يلذّ لى اغتماض ... ولم أرحل إلى البيت الحرام

ولا طــافت بى الآمــال إن لــم   أطف مـــا بين زمـــزم والمقــام
ولا طـــابت حيـــاة لى إذا لـــم   أزر فى طَيْبـــة خـــير الأنـــام
وأهديـــه الســـلام وأقتضيـــه   رضـــى يدنـــى إلى دار الســـلام

وقال:

هنيئا لمن حج بيت الهدى.. (البيتين)

ولنختم ترجمته بقوله:

أحـب النبى المصـــطفى وابن عمـــه   عليا وســـبطيه وفاطمـــة الزهـــرا
هُم أهـــل بيت أذهب الرجس عنهم   وأطلعهم أفــق الهــدى أنجمــا زهــرا
موالاتهـم فــرض على كــل مســـلم   وحبهــم أســنى الذخــائر للأخــرى
ومــا أنا للصـــحب الكرام بمبغض   فإنى أرى البغضـــاء فى حقهـم كفـرا
هُــمْ جاهــدوا فى الله حــقَّ جهـــاده   وهم نصروا دين الهدى بالظُبَى نصرا
عليهم ســـلام الله ما دام ذكرهــم   لدى المــلأ الأعلى وأكـــرم به ذكـــرا

وقوله فى آخر الميمية:

نبـــى شـــــفاعته عصمـــــة   فيوم التنـــادى بــــه يعتصـــم
عســـى أن تجـــاب لـنـــا دعـــوة   لديـــه فنكفى بهـــا مـــا أهـــم
ويــرعى لـــــزواره فـــى غـــــد   ذمامـا فمـــا زال يرعـــى الذمـــم
عليــه الســـلام وطـــوبى لمـــن   ألـــمَّ بتربتـــــــه فاســـــتلم
أخـــى كـــم نتابـــع أهـــــواءنا   ونخبـط عشـــــواءها فى الظُلَـــم
رويـدك جـــرت فــعج واقتصــــد   أمــامـــك نهج الطــريق الأعـــم
وتب قبــل عض بنــان الأســـــى   ومـــن قبــل قرعــك ســـن النـــدم

ومنها:

وقــل رب هـــب رحمـــة فى غد   لعبد بسيمَـــى العصـــاة اتســـم
جـــرى فـــى ميـــادين عصيانـــه   مســيئا ودان بكفـــر النعـــــم
فيـــارب صـــفحات عمـــا جنـــى   ويـــارب عفــوك عمـــا اجـــترم

obeikandl.com

وقال المقرى، رحمة الله عليه، فى الباب السابع من كتابه ما نصه: ومن الحكايات فى مروءة أهل الأندلس، ما ذكره صاحب «الملتمس» فى ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبى الحسين بن جبير صاحب الرحلة، وقد قدمنا ترجمته فى الباب الخامس من هذا الكتاب، وذكرنا هنالك أنه كان من أهل المروءات عاشقًا فى قضاء الحوائج، والسعى فى حقوق الإخوان، وأنشدنا هنالك قوله «يحسب الناس بأنى متعب».. إلخ.

وقد ذكر ذلك كله صاحب «الملتمس»، ثم قال (أعنى صاحب الملتمس»: ومن أغرب ما يحكى أنى كنت أحرص الناس على أن أصاهر قاضى غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الفرس، فجعلته (يعنى ابن جبير) الواسطة حتى تيسر ذلك، فلم يوفق الله ما بينى وبين الزوجة، فجئته وشكوت له ذلك، فقال: أنا ما كان القصد لى فى اجتماعكما، ولكن سعيت جهدى فى غرضك، وها أنا أسعى أيضًا فى افتراقكما اذ هو من غرضك. وخرج فى الحين، ففصل القضية، ولم أر فى وجهه أولًا ولا أخيرًا عنوانًا لامتنان ولا تصعيب. ثم إنه طرق بابى، ففتحت له، ودخل وفى يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية، فقال: يا ابن أخى أعلم أنى كنت السبب فى هذه القضية، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذى وجدته الآن عند عمك، فبالله إلا ما سررتنى بقبوله.

فقلت له: أنا ما أستحيى منك فى هذا الأمر، والله أن أخذت هذا المال لأتلفنه فيما أتلفت فيه مال والدى من أمور الشباب، ولا يحل لك أن تمكننى به بعد أن شرحت لك أمرى.

فتبسم وقال: لقد احتلت فى الخروج عن المنة بحيلة، وانصرف بماله. انتهى.

ثم قال صاحب الملتمس: وتذاكرنا يومًا معه حالة الزاهد أبى عمران المارتلى، فقال: صحبته مدة فما رأيت مثله، وأنشدنى شعرين ما نسيتهما، ولا أنساهما ما استطعت، فالأول قوله:

إلى كم أقول فلا أفعل ... وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عينى فلا ترعوى ... وأنصح نفسى فلا تقبل
وكم ذا تعلل لى ويحها ... بعلٍ وسوف وكم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقا ... وأغفل والموت لا يغفل
وفى كل يوم ينادى بنا ... منادى الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا ... وسبع أتت بعدها تعجل

كـأن بى وشـــيكا إلى مصـــرعى يســـــاق بنعشــــى ولا أمهــل
فياليـت شعـرى بعـد السـؤال وطــول المقـــام ، لما أنقـــل

والثانى قوله:

اســـمع أخـــى نصيحتـــى والنصـــح مـــن محض الديانـــه
لا تقـــربن إلـــى الشهـــا دة والـــوســـاطـة والأمانـــه
تســلم مـــن أن تعـــزى لـــزو ر أو فضـــول أو خيانـــه

قال: فقلت له: أراك لم تعمل بوصيته فى الوساطة، فقال: ما ساعدتنى رقة وجهى على ذلك. انتهى.

* * *

وفى كتاب «رحلة العبدرى» ما صورته: قال: وأنشدنى (شيخنا أبو زيد) أيضًا، قـال: أنشدنى أبو عمرو بـن الشـقر، قـال. أنشـدنى الفقيـه الزاهـد، المنقطـع إلى الله بمهجتـه، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى بالإسكندرية لنفسه:

تأن فـى الأمـــر لا تكن عجــلا فمـــن تأنى أصـــاب أو كـــادا
وكـــن بحبــل الله الاله معتصمـا تامن بـــه بغىَ كــل من كـــادا
فمـــن رجـــاه فنـــال بغينـــه عبدٌ مســـىء بنفســـه كـــادا
ومـن تطل صحبــة الزمـــان لـــه يلق خطوبـــا بـــه وأنكـادا

وبنحوه له:

صـــن العقـل عـن لحظة فى هـوى فإن البصـــيرة طـــوع البصـــر
وغـــض جفونـــك عـــن عفـــة فإن زنـــــاء العيـــون النظـــر

وأنشدنى أيضًا بمثله:

أســـا فـــى الدهـــر معتبـــر ففيـــه الصـــفو والكـــــدو
فســـــلنى عـــن تقلبـــــه فعـنـد جهـــينة الخـــــبر
صحبنـــاه إلـــى أجـــــل تراقبـــــه ونحتـــــذر
فياعجبـــا لمـــن تحـــل ولايـــدرى متـــى الســـفر

وقال العبدرى أيضًا، بعد وصفه الإسكندرية وعجائبها: ومـن الأمـر المستغرب والحـال الذى أفصح عن قلة دينهم (يعنى أهل الإسكندرية) أنهم يعترضون الحجاج، ويجرعونـهم

من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج،يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال.

وقد رأيت من ذلك، يوم ورودنا عليهم، ما اشتد له عجبى، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى. وذلك لما وصل إليها الركب، جاءت شرذمة من الحرس – لا حرس الله مهجتهم الخسيسة، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة – فمدوا فى الحجاج أيديهم، وفتشوا الرجال والنساء، وألزموهم أنواعا من المظالم، وأذاقوهم ألوانًا من الهوان، ثم استخلفوهم وراء ذلك كله.

وما رأيت هذه العادة الذميمة، والشيمة اللئيمة، فى بلد من البلاد. ولا رأيت فى الناس أقسى قلوبًا، ولا أقل حياء ومروءة، ولا أكثر إعراضًا عن الله سبحانه، وجفاء لأهل دينه، من أهل هذا البلد. نعوذ بالله من الخذلان، فلو شاء لاعتدل المائل، وانتبه الوسنان.

وكنت إذ رأيت فعل المذكورين، ظننت أن ذلك أمر أحدثوه، حتى حدثنى نور الدين أبو عبد الله بن زين الدين أبى الحسن يحيى بن الشيخ وجيه الدين أبى على منصور بن عبد العزيز بن حباسة الإسكندرى، بمدرسة جده المذكور، حكاية اقتضت أن لهم فى هذه الفضائح سلفًا غير صالح.

وذلك أنه حدثنى إملاء من كتابه، قال: حدثنى الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد السبتى الحميرى، بثغر الإسكندرية سنة ٦٦٢هـ، قال: حدثنى الشيخ الإمام المحدث أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير، الكنانى الأندلسى، سنة ٦١١هـ: أنه ورد إلى الإسكندرية، فى ركب عظيم عن المغاربة، برسم الحج، فأمر الناظر على البلاد بمد اليد فيهم للتفتيش، والبحث عما بأيديهم، ففتش الرجال والنساء، وهتكت حرمة الحرم، ولم يكن فيهم إبقاء على أحد.

قال: فلما جاءتنى النوبة – وكانت معى حرم – ذكرتهم بالله ووعظتهم، فلم يعرجوا على قولى، ولا التفتوا إلى كلامى، وفتشونى كما فتشوا غيرى. فاستخرت الله تعالى، ونظمت هذه القصيدة ناصحا لأمير المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومذكرًا له بالله فى حقوق المسلمين، ومادحًا له، فقلت:

أطلت على أفقك الزاهر ... سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدى ... تمد إلى سيفك الباتر

وعمـا قليـل يحـل الردى … بكيـدهم الناكـث الغـادر
وخصـب الورى يـوم يسقى … الثـرى سحائب من دمها الهامر
فكـم لـك مـن فتكـة فيهـم … حكـت فتكـة الأسـد الخـادر
كسـرت صليبهـم عنـوة … فللـه درك مـن كاسـر
وغيـرت آثـارهـم كلهـا … فليـس لهـا الدهـر من جابر
وأمضيـت جـدك فى غزوهـم … فتعسـا لجدهـم العاثـر
فأدبـر ملكهـم بالشـآم … وولـى كأمسهـم الدابـر
جنـودك بالرعـب منصـورة … فنـاجـز متـى شئت أو صابـر
فكلهـم غـارق هـالك … بتيـار عسـكرك الزاخـر
ثـأرت لدين الهـدى فى العدى … فآثـرك اللـه من ثائـر
وقمـت بنصـر الـه الـورى … فسمـاك بالملك الناصـر
وتسهـر جفنـك فى حـق مـن … سيرضيـك فى جفنـك الساهـر
فتحـت المقـدس مـن أرضـه … فعـادت إلى وصفهـا الطاهـر
وجئـت إلى قدسـه المرتضـى … فخلصتـه مـن يـد الكافـر
وأعليـت فيـه منـار الهـدى … وأحييـت مـن رسمـه الداثـر
لكـم زخـر الله هـذى الفتـوح … مـن الزمـن الأول الغابـر
وخصـك مـن بعد ما زرتـه … بهـا لاصطناعـك فى الآخـر
محبتكـم ألقيت فـى النفـوس … بذكـر لكـم فى الـورى طائـر
فكـم لهـم عند ذكـر الملـوك … بمثلـك مـن مثـل سائـر
رفعـت معـارم أرض الحجـاز … بانعامـك الشامـل الغامـر
(وآمنـت أكنـاف تـلك البـلاد … فهـان السبيـل عـلى العابـر)
(وسحـب أياديـك فياضـة … عـلى وارد وعـلى صـادر)
فكـم لك بالشـرق من حـامد … وكـم لك فى الغـرب من شاكر
وكـم بالدعـاء لكـم كل عـام … بمكـة مـن معلـن جاهـر
وكم بقيـت حبسـة فى الظلـوم … وتلـك الذخيـرة فى الذاخـر
يعنّـت حجـاج بيـت الإلـه … ويسطـو بهـم سطـوة الجائـر
ويكشـف عمـا بأيديهـم … وناهيـك مـن موقف صاغـر
وقـد أوقفـوا بعدمـا كوشفـوا … كأنهـم فـى يـد الآسـر

ويلزمهم حلفا باطلا ... وعقبى اليمين على الفاجر
وإن عرضت بينهم حرمة ... فليس لها عنه من سائر
أليس يخاف غدا عرضه ... على الملك القادر القاهر
وليس على حُرَمِ المسلمين ... بتلك المشاهد من غائر
ولا حاضر نافع زجره ... فياذلة الحاضر الزاجر
ألا ناصح مبلغ نصحه ... إلى الملك الناصر الظافر
ظلوم تضمن مال الزكاة ... لقد تعست صفقة الخاسر
يسر الخيانة فى باطن ... ويبدى النصيحة فى الظاهر
فأوقع به حادث إنه ... يقبِّح أحدوثة الذاكر
فما للمناكر من زاجر ... سواك وبالعرف من آمر
وحاشاك إن لم تُزل رسمها ... فما لك فى الناس من عاذر
ورفعك أمثالها موسع ... رداء فخارك من ناشر
وآثرك العز تبغى بها ... وتلك المآثر للآثر
نذرت النصيحة فى حقكم ... وحق الوفاء على الناذر
وحبك أنطقنى بالقريض ... وما أبتغى صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبى ... وبئس البضاعة للتاجر
إذا الشعر صار شعار الفتى ... فناهيك من لقب شاهر
وإن كان نظمى له ناذرا ... فقد قيل لا حكم للناذر
ولكنها خطرات الهوى ... تعز، فتغلب بالخاطر
وأمَّا وقد زار تلك العلى ... فقد فاز بالشرف الباهر
وإن كان منك قبول له ... فتلك الكرامة للزائر
ويكفيك سمعك من سامع ... ويكفيك لحظات للناظر
ويزهى على الروض غِب الحيا ... بما حاز من ذلك العاطر

قلت: هكذا حدثنى أبو عبد الله بهذه الحكاية، وقد وقعت فى كتابه مشهورة، لم يذكر فيه إلا ما أثبته، وبالله التوفيق.

وأنشدنى أبو عبد الله أيضًا، عن أبى العباس المذكور، عن ابن جبير، قصيدة نظمها ارتجالا حين تراءت له مدينة رسول الله ﷺ، وهى هذه:

أقول وآنست.. الأبيات.

وقال على بن ظافر فى «بدائع البداية»: أنبأنى المسكى: نزلت من القرافة لوداع الأجل أبى الحسين بن جبير، فقال لى: كنت على المجىء إليك، فقلت: وهمة سيدى هى التى آتت بى، فسألنى عن القرافة، فقلت: هى موضع يصلح للخير والشر، من طلب شيئًا وجده، فقال: خذ هذه الحكاية، كنت متفرجًا فى مكان وبت بـه، ثم أقبلت منه بكرة، فلقينى تلميذ لى فقال:

من أين أقبلت يا من لانظير لـــه ومـــن هـو الشمس والدنيا له فلك؟

فأجبته مسرعا:

مـن مـوضع تعجب النســاكَ خلوته وفيـــه ســتر على الفتاك أن فتكوا

هذه كانت لمحة سريعة عن ابن جبير ورحلته وما قاله المؤرخون عن هـذا الكتـاب مما يجعلنا تقديم ونشر هذا العمل الجليل ، والله ولى التوفيق ..